المحاضرة رقم 04: مقاومة أحمد باي قسنطينة (1830-1848).

1- من هو أحمد باي: يعتبر الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة، ولد في سنة 1786، أبوه هو محمد الشريف، وأمه الحاجة شريفة من أسرة بن قانة المعروفة في الصحراء، تعلم الفروسية، وتدرب على القتال، وقد تصاهر الحاج أحمد باي مع عدد من الأسر والقبائل العربية قصد كسب تأييدهم، و اعترف له أعدائه ومعاصروه بالحنكة السياسية، والمواقف البطولية، وغيرته الدينية، وكرهه للأجانب، وكل هذا أهله لكي يتولى تسيير بايلك قسنطينة سنة 1826 برتبة باي.

2- مراحل مقاومة الحاج أحمد باي:

1.2- المرحلة الأولى 1830-1837: شهد أحمد باي الإنزال الفرنسي بسيدي فرج عام 1830، وذلك لأنه انتقل إلى الجزائر العاصمة لتأدية الدنوش[1]، كما شارك في معركة سطاوالي، وشهد سقوط الجزائر العاصمة في يد الاحتلال الفرنسي، واستسلام الداي حسين، وبعد كل هذا عاد أحمد باي ومن بقي معه من الجيش إلى قسنطينة، وقبل وصوله إليها أدركه رسول بعثه القائد العام للجيش الفرنسي دي بورمون، وذلك ليقدم له عرض ينص على أن الدولة الفرنسية ستوافق على بقائه بايا على قسنطينة مقابل إعترافه بالسيادة الفرنسية مع دفع الدنوش (اللازمة) لفرنسا بدل الداي حسين، فكان رد أحمد باي بأنه لا يمكن أن يقرر في هذا الشأن دون أخذ رأي سكان قسنطينة ومقاطعتها، لكن وأثناء غياب الحاج أحمد باي عن قسنطينة دبرت مؤامرة ضده من قبل خصومه الأتراك، هؤلاء أعلنوا انقلابا عليه، وعينوا بايا جديدا محله، لكن وبمساعدة سكان قسنطينة وأعيانها تمكن الحاج أحمد باي من استرجاع الحكم على مدينة قسنطينة، وبعد عودته للحكم وصلته رسالة أخرى من قائد الجيش الفرنسي الجديد الجنرال كلوزيل، طلب منه فيها تعيينه بايا على قسنطينة باسم ملك الفرنسيين شريطة أن يدفع الدنوش (اللازمة) لفرنسا، فكان رد أحمد باي بعد التشاور مع أعضاء ديوانه الرفض، وهو ما دفع بالجنرال كلوزيل إلى عزل أحمد باي من منصبه، وتعيين باي تونسي مكانه، لكن أعضاء ديوان أحمد باي رفضوا هذا القرار وأصروا على إبقائه بايا عليهم.

لكن احتلال عنابة من قبل فرنسا سنة 1832 بمساعدة الباي إبراهيم (كان بايا قبل الحاج أحمد باي، ونظرا لعداوته للحاج أحمد باي أعلن نفسه بايا على عنابة، كما تواطأ مع الفرنسيين ضد أحمد باي) أثر بدرجة كبيرة على مجريات العلاقة بين الطرفين اللذان تقابل في مواجهة عسكرية بعنابة، ونظرا لعدم تكافئ قوى الطرفين خرج جيش أحمد باي والسكان الرافضين للاحتلال الفرنسي من عنابة، وبعدها علم الحاج أحمد باي عن طريق جواسيسه أن فرنسا تستعد للقيام بحملة على قسنطينة، فرأى بأنه لا جدوى من مواصلة هذه العلاقات في إطار التفاوض، وبدأ بدوره يستعد لرد الهجوم الفرنسي على مدينته.

[1] الدنوش: يقصد به الرحلة التقليدية التي يقوم بها البايات كل ثلاث سنوات إلى العاصمة لتقديم تقرير عام عن حالة الاقليم، وتجديد الولاء للداي، مع دفع اللازمة المالية أو الدنوش للداي والخزينة العامة من أجل الحفاظ على المنصب.

- **<u>الاحتلال الفرنسي الأول لقسنطينة سنة 1836:</u>** لما تعبت فرنسا من استمالة أحمد باي قررت أن تستولي على عاصمته، فجهزت حملة قوامها 8800 عسكري بقيادة الجنرال كلوزيل، خرجت يوم 8 نوفمبر 1836 من عنابة واتجهت نحو قسنطينة، بينما قدر جيش أحمد باي ب 8900 جندي، ووصلت الجيوش الفرنسية إلى قسنطينة يوم 21 نوفمبر 1836، وكانت جد منهكة جراء الغارات التي استهدفتها على طول الطريق إلى قسنطينة (كما سبق وذكرت أحمد باي لما علم بأن فرنسا تستعد لاحتلال قسنطينة وزع جنوده على طول الطريق إلى قسنطينة)، هذا بالإضافة إلى الأمطار والثلوج التي عرقلت تقدم الجيش الفرنسي، هذا الأخير باشر ضرب المدينة بالمدافع، ودام حصاره لمدينة قسنطينة ثلاثة أيام من 21 إلى 23 نوفمبر 1836، وفي اليوم الموالي أي 24 نوفمبر رفع الغزاة حصارهم عن المدينة بعدما تكبدوا خسائر فادحة، وانسحبوا إلى عنابة مخلفين جرحاهم ومعداتهم، وهذه الهزيمة في أوساط الجيش الفرنسي دفعت بالحكومة الفرنسية إلى عزل الجنرال كلوزيل، وتعيين الجنرال دامريمون محله.

- **<u>الاحتلال الفرنسي الثاني لقسنطينة سنة 1837</u>**: بعد إبرام الفرنسيين لمعاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر تفرغوا مجددا لقتال أحمد باي، وجهزوا حملة بقيادة دامريمون ضمت 20.400 رجل، ومدفعية قوية بقيادة الجنرال فالي، وفرقة هندسة، وبالتالي يمكن القول أن الجنرال دامريمون اعتبر من الهزيمة الأولى وبادر إلى وضع خطة عسكرية محكمة تقضي بالهجوم مباشرة على مداخيل المدينة منها باب القنطرة والكدية، وذلك بفتح ثغرة على أسوار المدينة، بينما أحمد باي لم يغير الخطة التي اعتمدها في المعركة الأولى (أي وضع قوتين واحدة تدافع من الداخل، وأخرى تهاجم مؤخرة الجيش الفرنسي، وبالتالي إحداث الفوضى في صفوفهم)، وقد وصلت الحملة إلى قسنطينة يوم 5 أكتوبر 1837 وحاصرتها، وحاول أحمد باي الإيقاع بها مثلما عمل في الحملة الفرنسية الأولى، لكن هذه المرة كانت قوات الاحتلال أكثر استعداد، حيث وجهوا عدة ضربات للأسوار الجنوبية الغربية للمدينة، وبذلك أحدثوا ثغرات مكنتهم من دخول المدينة في 13 أكتوبر 1837، وهكذا سقطت المدينة يومي 13 و14 أكتوبر، وظلت قوات الاحتلال الفرنسي تنهب خيرات المدينة لمدة ثلاثة أيام، وقد قتل عدة جنود وضباط خلال هذه المعركة، منهم الجنرال دامريمون الذي خلفه الجنرال فالي.

2.2- المرحلة الثانية 1837-1848: بعد سقوط قسنطينة في يد الاحتلال الفرنسي، انسحب أحمد باي إلى الزيبان إمتثالا لرأي خاله بوعزيز بن قانة لمواجهة خصمه فرحات بن سعيد الذي كان يحكم بسكرة، وقد تمكن أحمد باي من هزيمته وحكم المدينة لبضعة أشهر، وواصل أحمد باي في تعبئة الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي، فتوجه نحو بلاد الحراكتة (نواحي عين البيضاء)، ثم إلى النمامشة، ثم وادي ريغ عام 1839، ثم قصد النمامشة مرة أخرى لبعث المقاومة عام 1842، ثم انتقل إلى الأوراس، وفي عام 1844 شارك مع أولاد سلطان غربي باتنة ضد حملة فرنسية بقيادة دومال، وقد ذكر أحمد باي بأنها أكبر معركة خاضها في حياته.

اضطر أحمد باي إلى الانسحاب جنوبا بسبب المرض الذي اشتد به، واستقر بقرية منعة (الأوراس) لمدة عام، وفي عام 1845 استنجد به سكان وادي عبدي في حملة الجنرال بيدو فلبى نداءهم، لكن لما

وجدهم منقسمين تركهم وانسحب إلى منعة (الأوراس) أين هاجمه الفرنسيون، فانسحب أحمد باي إلى جبل أحمر خذو (جنوب شرقي منعة) لمناعته، وظل هناك إلى غاية استسلامه.

فلما تقدم أحمد باي في السن، وقل أنصاره، وفقد موارده المالية، وتكاثر المتآمرون عليه، وحاصره الفرنسيون بجبل أحمر خذو، فاضطر إلى مكاتبة حاكم بسكرة في 2 جوان 1848 عارضا عليه الاستسلام مقابل استعادة أملاكه، والسماح له بالسفر إلى المشرق، وهكذا استسلم في 5 جوان 1848 ببسكرة، ثم نقل إلى العاصمة، وخصصت له السلطات الفرنسية مسكنا ومنحة شهرية، لكنها لم تسمح له بالهجرة، وتوفي في 31 أوت 1850.

- <u>علاقة الحاج أحمد باي بالأمير عبد القادر</u>:

- لقد كانت هذه العلاقة تتأرجح بين العداء والتقارب من فترة لأخرى، لكن الأمر الذي أثر في نفسية أحمد باي التقارب الذي حصل بين الأمير عبد القادر والفرنسيين ابتداء من عقد معاهدة ديميشال فيفري 1834، وما زاد في إحداث تباعد بين الزعيمين معاهدة التافنة التي أبرمها الأمير عبد القادر مع فرنسا في 1837، وقد اعتبرها أحمد باي خيانة كبرى للجزائر، لأنها أتاحت الفرصة للفرنسيين بتقوية معداتهم للقضاء على المقاومة.

- يعود أيضا سبب تأزم العلاقة بين الشخصيتين إلى عدم مبادرة الأمير عبد القادر عسكريا لمساعدة أحمد باي، وهو ما سهل بطريقة غير مباشرة في احتلال قسنطينة، كما أن طمع الأمير عبد القادر في قسنطينة بعد سقوطها في يد فرنسا، وتأليب بعض القبائل ضد الحاج أحمد باي زاد في اتساع الهوة بين الزعيمين.